كولن باول وتحرير الكويت

«..لقد كانت حرب الخليج نصرا للدقة في التخطيط، وتنفيذا تاما وخاليا من الاخطاء تقريبا.. وقد تم فيها تحقيق اعلى الاهداف من الناحية العسكرية..».

جون كيغان (من اعظم مؤرخي الحروب المعاصرين).

* * *

قرأت وبتمعن شديد القسم المتعلق بموضوع حرب الخليج من مذكرات الجنرال كولن باول، الرئيس السابق لعموم اركان حرب الجيوش الاميركية، وهذه بعض من المقتطفات التي وردت في المذكرات والتي اعتقد باهمية تسليط الضوء عليها: ايد الجنرال باول في تلك المذكرات ما كنا نتداوله بهمس، عن موقف الرئيس الاميركي السابق جورج بوش من الغزو العراقي في ايامه الاولى، وكذلك موقف الكثير من اعضاء ادارته بمن فيهم كاتب المذكرات نفسه، والتغيرات الحاسمة التي طرأت على موقف الرئيس بوش بعد اجتماعه برئيسة الوزراء البريطانية في حينه مارغريت تاتشر!! يقول باول انه طرح السؤال التالي على القيادة العليا في اول اجتماع موسع لها بعد الغزو مباشرة وبحضور الرئيس بوش: هل من المجدي ان ندخل الحرب مع العراق في سبيل تحرير الكويت؟؟ وبالرغم من ان الجنرال باول يعطي في كتابه تبريرا لذلك السؤال، الا ان الحقيقة ان احدا لم يجب عليه بالموافقة او الرفض، مما يعني ان السؤال كان يدور في ذهن الجميع. كان الرئيس بوش يؤكد للشعب الاميركي منذ الايام الاولى للغزو بانه لم يناقش موضوع التدخل العسكري ولا يتوقع اجراء كهذا، وكان ذلك منذ الخميس وحتى مساء الاحد عندما انقلب موقفه ١٨٠ درجة حيث صرح بعد عودته من كمب ديفيد وبعد لقائه قبل ذلك مع مارغريت تاتشر بان مسالة غزو الكويت والاعتداء عليها ليس مقبولا ولن يستمر!! وهذه الحادثة تبين بوضوح مدى اهمية الدور الذي لعبته السيدة (البارونة) تاتشر في حث الرئيس الاميركي على اتخاذ ذلك الموقف الحازم والواضح من مسالة احتلال الكويت. برز دور الرئيس بوش كقائد ومحرر للكويت في مسالة الاستجابة لطلبات العسكريين، وعلى رأسهم الجنرال نورمان شوارتزكوف، والمتعلقة باستدعاء الاف جنود الاحتياط، وهذا يعني ان عشرات الاف الاسر الاميركية ستتأثر والكثير من المشاريع ستتوقف وسينتزع الناس من اعمالهم، وستتوقف وظائف وسينتج عن كل ذلك مجموعة هائلة من الاشكالات التي ستنشأ من جراء اجتثاث كل هؤلاء من اعمالهم وحياتهم العادية وارسالهم الى الصحراء والمصير المجهول والحر القائظ! لقد كان قرارا على قدر عال جدا من الاهمية السياسية، وقد تبعه بقرار اخر مهم وهو اعطاء القوات المسلحة الحق في استخدام كافة الطائرات المدنية للاستخدامات العسكرية، اذا ما تطلب الامر ذلك. يقول الجنرال باول انه واجه مجموعة من التعقيدات الدينية والنفسية مع الامير بندر، سفير المملكة العربية السعودية لدى واشنطن، والتي تعلقت بموضوع ممارسة عشرات الاف الجنود الاميركيين التابعين لديانات مختلفة لشعائرهم، وطريقة معيشتهم المختلفة على ارض المملكة، وكيف تمكن والامير من ايجاد حلول عملية لهذه الاشكاليات ولكن بطريقة لم تخلُ من الـ "Hypocrisy"!!.

لاول مرة في تاريخ المنظمة الدولية يتم تمرير قرار في مجلس الامن بدون اعتراض اي من الدول الخمس الكبرى عليه، وقد كان ذلك هو القرار ٦٧٨ والمتعلق بالتصريح باستخدام كافة الوسائل الضرورية لاخراج القوات العراقية من الكويت. اخذت مسالة تحديد يوم وساعة بدء الهجوم الجوي الكثير من النقاش بين عصبة الثمانية في البيت الابيض الاميركي، والتي كانت تتكون من الرئيس، وزير الخارجية، رئيس مجلس الامن القومي ونائبه، رئيس الاركان العامة، رئيس موظفي البيت الابيض، رئيس «السي اي اي» ووزير الدفاع، والتي كانت تتخذ كافة القرارات السياسية والعسكرية المتعلقة بحرب الخليج الثانية، وقد تم اختيار يوم ١٧ يناير حيث ان المهلة المعطاة للعراق للانسحاب كانت تنتهي يوم ١٥ يناير، وبدأ الهجوم بعدها بيوم كان سيبدو متوقعا، وتاخير الهجوم اكثر من يومين كان سيظهر الاميركيين وكانهم غير جادين، وهكذا تم اختيار يوم ١٧ يناير، وحددت ساعة الهجوم في الثالثة صباحا، وهذا يعني انه سيكون بمقدور الطائرات القيام بغارة خاطفة والعودة تحت جنح الظلام وباقل عدد من الاصابات، كما ان الغارة في الثالثة صباحا تعني تواجدا سكانيا اقل في شوارع بغداد وهذا ايضا يقلل الاصابة بين المدنيين. اخذت قضية احتمال استعمال العراق لاسلحة غير تقليدية حيزا كبيرا من النقاش بين المسؤولين الاميركيين، وكانت لهجة الرسائل الرسمية وغير الرسمية التي ارسلت لصدام واضحة وتحذره من ان استعمال اية اسلحة كيماوية او بيولوجية

بقلم: احمد الصراف

سينتج عنها قيام القوات المتحالفة بضرب وتدمير كافة قطع اسطول العراق التجاري ونسف جميع خطوط السكك الحديدية ومبانيها وتدمير وهدم جميع الموانئ البرية والبحرية وشبكة الطرق السريعة والمنشآت النفطية، وتم تحذيره ايضا بان جميع السدود على نهري دجلة والفرات سيتم تدميرها وسيؤدي ذلك الى اغراق بغداد بمياهها، ولكن هذا التحذير الاخير لم يكن جديا. يصف الجنرال باول بدقة اللحظات الاخيرة التي سبقت اعطاء الامر للجنرال شوارتزكوف ببدء الحرب، فيقول ان مجموعة الثمانية التقت في مكتب الرئيس، ولاول مرة لم يرحب بهم الرئيس بطريقته المحببة التي تعودوا عليها، وكان الوجوم مرتسما على وجوه الجميع، ولم يتمالك هو نفسه، خلافا للاعراف العسكرية، من فك ازرار بدلته العسكرية بعد ان احس بالاختناق، حيث ان اتخاذ قرار الحرب لم يكن سهلا ومجرد التفكير في ما ستجره من ويلات ومصائب على الجميع كان كفيلا بجعل الدم يتجمد في عروق الحضور، وكانت مسالة تقدير عدد الجنود الاميركيين الذين سيكون مصيرهم الموت في تلك الحرب مسالة تشغل بال القيادة الاميركية حيث ان صورة عودة الجنود ملفوفين باكياس البلاستيك كانت مرعبة وصعبة التصور على الجميع، وقد كانت اكثر التقديرات تفاؤلا بخصوص عدد الضحايا تعتقد بان العدد سوف لن يتجاوز الخمسة الاف، واعتقد الكثير من الخبراء العكسريين بان الرقم سوف لن يقل عن عشرين الفا، واتذكر انني مررت بتجربة مرعبة عندما كنت في منطقة الخبر تتعلق بهذا الموضوع، فقد كنت برفقة الاخ فايز المطوع في منطقة الخبر بعد اعلان هزيمة العراق بايام حيث اخذنا مضيفنا، الاخ خليفة القصيبي، الى مخازن المواد الغذائية الضخمة التي تملكها شركتهم والتي استاجرتها القوات الاميركية لاستعمالها لتخزين جثث الجنود قبل ارسالها الى الولايات المتحدة، وبينت ضخامة تلك المخازن وتجهيزاتها مقدار الجدية التي نظرت بها القيادة العسكرية لمسالة عدد الضحايا، هذا عندهم اما عندنا فان المسالة لا تحتاج الى تعليق!! عند اول اتصال هاتفي قام به شوارتزكوف برئيسه الجنرال باول حاول كثيرا السيطرة على مشاعر الغبطة في صوته، بسبب النتائج الكبيرة التي حققتها الضربة الجوية الاولى وذلك من خلال ٨٥٠ طلعة، حيث تم تدمير اغلب مصانع الاسلحة البيولوجية ونظام الدفاع الجوي ومخازن ذخيرة وقاعدتين لاطلاق صواريخ السكود ومبنى الاي تي تي للاتصالات بوسط بغداد واحد قصور صدام، وكانت خسائر القوات الحليفة طائرتين حربيتين بالرغم من ان الرقم المتوقع للخسائر كان خمسا وسبعين طائرة في الموجة الاولى، وكانت هناك ١٦٠ طائرة وقود تحوم في الاجواء السعودية والعراقية وتقوم بتزويد الطائرات الحربية بالوقود في الليلة الاولى لبدء الحرب. توقع الكثير من المحللين ان يعلن صدام، بعد ان عرف مدى التفوق الهائل الذي تملكه القوى المناوئة له، توقعوا ان تكون لديه ذرة من العقل ويعلن انسحابه واستسلامه، ولكنه خيب امل الجميع واصر على ان تستمر عملية تدمير كامل البنية الفوقية والتحتية لبغداد، ويفقد في النهاية ما يقرب من ٢٦٠ الفا من جنوده وضعف ذلك من المدنيين في معارك اهلية تالية من اجل ان يبقى في السلطة لاطول فترة ممكنة!! تنتهي المذكرات، وتخرج من قراءتها بمجموعة من العبر:

* ان القيادة الجماعية والتشاور بين اركان الحكم وخاصة في الازمات هي الطريقة الصحيحة لتجنب الكثير من الاخطاء التي تنتج من التفرد باتخاذ القرارات.

* ان حياة ورفاهية وسلامة الانسان المواطن تاتي في المرتبة الاولى، وعلى ضوء هذا الحقيقة تتخذ اخطر القرارات واكثرها تاثيرا على حياتهم.

* ان احترام آراء الآخرين والانصات لهم هو جزء من عملية الايمان بكرامة الانسان.

وهذا يفسر العدد الضئيل نسبيا من الضحايا الذين سقطوا، من جانب الحلفاء، قتلى في معركة تحرير الكويت، فمن اصل ما يزيد عن ٥٠٠ الف عسكري قتل في المعارك ١٣٧ فردا بين جندي وضابط وقتل ٢٣٦ آخرين في حوادث متفرقة لا علاقة للعمليات العسكرية بها، ولم يكن من الممكن انجاز تلك العملية الجبارة بكل تلك الدقة وفي زمن قياسي لولا ايمان من كان بيدهم قرار الحرب باهمية الانسان وحياته وما يمثله من قيم، ومن جانب آخر فان اكثر التقديرات تحفظا قدر عدد الضحايا في الجانب العراقي بما يقارب الربع مليون عسكري، الا ان من المؤسف والمؤلم جدا ان الرقم الحقيقي سوف لن يعرف ابدا، وهذا ان دل على شيء فانما يدل على مدى رخص قيمة الانسان وتفاهة روحه وانعدام الاحساس بكرامته لدى الغالبية منا!! وقد عبرت احدى لقطات محطة «السي ان ان» عن هذا الوضع احسن تعبير وذلك عندما صورت الجنود العراقيين وهم يخرجون من خنادقهم زاحفين على بطونهم وهم يهمون بتقبيل حذاء الجندي الاميركي، لقد كانت لقطة مؤلمة وقاسية بكل المقاييس، ومن الغريب ان المعاناة الحقيقية للجندي، في الظروف العادية، تبدأ عندما يقع في الاسر، وما رأيناه في تلك اللقطة والجندي الاميركي يحاول رفع رؤوس الجنود العراقيين عن الارض وهو يقول لهم «لا تخشوا شيئا، لقد انتهت معاناتكم» كان صفعة في وجوه جميع اولئك القادة الذين لم يحترموا شعوبهم ومرغوا كرامة مواطنيهم في الوحل وهذا كان السبب الاول في هزيمة ذلك الجيش الجرار في معركة «ام الهزائم».